مجلة جامعة الملك سعود، م ٢، الآداب (١)، ص ص ٣٠٣ - ٣٢٦ (١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م).

طبيعة وأسباب اتصال صلاح الدين مع الخليفة المنصور الموحدي

محسن محمد حسين
أستاذ مساعد، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة بغداد، بغداد، الجمهورية العراقية

ملخص البحث. من الموضوعات الجديرة بالدراسة في تاريخ الحروب الصليبية، والعلاقات بين القوى الإسلامية، موضوع اتصال صلاح الدين الأيوبي بالملك الموحدي «الخليفة المنصور» يعقوب بن يوسف بن عبدالمؤمن الذي حكم بلاد المغرب وبعض بلاد الأندلس في الفترة (٥٨٠ - ٥٩٥هـ/ ١١٨٤ - ١١٩٨م). فهذا الموضوع لم يعالج بمستوى يرقى إلى مستوى خطورة الحدث - كما سنرى - إضافة إلى أن المؤرخين المغاربة، المعاصرين لأحداث تلك الفترة، لم يلقوا الضوء الكافي عليه أو عالجوه من منظار ضيق. أما المؤرخون المعاصرون المشارقة فلم يذكروا عنه أي شيء. ولهذا قمنا بدراسة الموضوع على ضوء طبيعة العلاقات بين القوى الإسلامية التي تتمثل في حاجة صلاح الدين إلى دعم بحري أثناء حصار عكا الطويل، وذلك لخلق توازن مع بحرية العدو الذي حاول استعادة الأراضي التي فقدها إثر موقعة حطين مما أثار أوربا مجددًا ودفعها إلى القيام بحملة صليبية جديدة هي الثالثة التي قادها أعظم ملوك أوربا عصرئذ والذين انصب اهتمامهم باستعادة «مملكة بيت المقدس» بادئين من عكا بتطويقها برًّا وبحرًا. وحين عجزت بحرية صلاح الدين عن الصمود اضطر هذا القائد إلى طلب المعونة من الأطراف الإسلامية، ولا سيما من الملك الموحدي. وقد فشل في الحصول على شيء ما وقد بحثنا أسباب لجوء صلاح الدين إلى هذا الملك، وأسباب رفض طلبه، وكانت النتيجة سقوط عكا المريع، على الرغم من أن العدو لم يستطع إحراز نصر كبير بعدها.

مقدمــة

إن موضوع العلاقة بين صلاح الدين والخليفة المنصور (الملك الموحدي) موضوع شائك تناوله بعض المؤرخين والكتاب (المشار إليهم في البحث) إلا أن كتاباتهم لم ترق إلى المستوى المطلوب سواء من حيث المنهج أو من حيث الأسباب والنتائج. وقد تطرقنا في أحد مفاصل

البحث إلى سكوت مصادر عصر صلاح الدين عن ذكر شيء عن طبيعة تلك العلاقة والمراسلات بين المجاهدين (المشرقي والمغربي) وهذا السكوت كان من المسائل المحيرة. وبينا طبيعة تلك الظروف التي دفعت صلاح الدين إلى طلب المعونة من ذلك الخليفة، سواء أكانت الظروف تتعلق بحركة استرداد الأرض من الاغتصاب الصليبي، أو الظروف التي أحاطت بالعلاقة الباردة — وغير السوية أحيانًا — التي كانت بين القطبين.

وكان لصلاح الدين مشروعية اللجوء إلى الخليفة الموحدي لطلب المعونة العسكرية ممثلة بإرسال جزء من أسطوله القوى للإسهام في جهوده المضنية لفك الحصار الصليبي المستحكم على مدينة عكا المهمة. إلا أنه لم يحصل من الخليفة على شيء ما. هذا من جهة، ومن جهة أخرى بينا أن الخليفة كانت له مشروعيته — هو الآخر — في رفض مد يد المعونة لصلاح الدين، سواء أكان ذلك بسبب ظروف بلاده الداخلية، — وقد تحدثنا عن ذلك في متن البحث — أو لجهوده الدؤوبة الرامية إلى الرد على محاولات نصارى الأندلس (من الإسبان والبرتغاليين) المتواصلة في حركة استرداد الأرض من المسلمين التي بدأت تنشط في شبه جزيرة إيبريا. هذا ويبدو أن الألقاب كانت لها أهميتها عصرئذ في تحديد العلاقات بين القوى الإسلامية، إضافة إلى احتكاكات سلبية حصلت بين بعض رجالات بني أيوب والدولة الموحدية، حالت، كلها، دون عقد علاقات طيبة بين الطرفين.

في أثر الانتصار الهائل الذي حققه جيش صلاح الدين في معركة حطين الحاسمة توجه هذا القائد بقواته بسرعة نحو عكا، وكان هذا التحرك السريع ينم عن عبقريته وحنكته العسكرية وبعد نظره، إذ باستيلائه على عكا وجّه لطمة عنيفة إلى أهم ركيزة كان يستند عليها الصليبيون، إذ كانت هذه المدينة بمثابة حجر الزاوية بالنسبة للمستوطنات الصليبية في فلسطين كافة، [١] فضلاً عن أن ذلك العمل مكّن صلاح الدين من تحقيق الاتصال

(١) أبو شامة، شهاب الدين عبدالرحمن بن إسماعيل المقدسي الدمشقي، *كتاب الروضتين في أخبار الدولتين* (القاهرة: مطبعة وادي النيل، ١٢٨٨هـ)، مج ٢، ص ٨٩؛ شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي الدمشقي، *مختصر تاريخ الإسلام* (مخطوط مصور في مكتبة الدراسات العليا، كلية الآداب، جامعة بغداد)، ورقة ٩ آ. ولذلك اتخذها الصليبيون عاصمة لمملكة بيت المقدس الصليبية، إضافة =

البحـري بين شطري دولته في مصر والشام،(٢) ولهذا كان الاستيلاء على عكا أول عمل عسكري مهم حققه بعد حطين بأسبوع واحد (مستهل جمادى الأولى ٥٨٣هـ/ ١٠ تموز ١١٨٧م).

بعد ذلك درج صلاح الدين على التردد عليها وتفقدها مرارًا، حتى أضحت حصنًا منيعًا، ترابط فيه حامية قوية، وتتوافر به المؤن، وغدت من القوة ما يحملها على المقاومة زمنًا طويلاً إلا أن الصليبيين بدأوا يعدّون العدّة لاستعادتها، فتواصلت قواتهم في الوصول إلى مشارفها بقيادة الأمراء والأساقفة. فبعد أن بلغت انتصارات صلاح الدين ذروتها في الأشهر القليلة السابقة، صار يتخذ خطة الدفاع عن المدن التي استولى عليها. فأمضى الشهور الأولى في تفقـد أحوال المدن التي حررها عام ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م، فطاف ببيت المقدس وعسقلان وعكا، وجدّد بناء استحكاماتها ونظم إداراتها. ثم طلب من ابن أخيه تقي الدين عمر بن شاهنشاه أن يسير مع القوات التي بحوزته، ومن سيلتحق به، ليتخذ مواقعه تجاه أنطاكية لكيلا يُغير صاحبها على الجهات الإسلامية عند انقضاء أمد الهدنة التي وقع عليها الطرفان.

ويبدو أن صلاح الدين كان علم أن تحرير بيت المقدس — الذي تم على يد قواته إثر موقعة حطين — سيدفع الصليبيين إلى إثارة أوربا من جديد، حيث أرسلوا صورة للسيد المسيح رسموه في وضع غير لائق، وزعموا أن المسلمين اعتدوا عليه (!) ودنسوا قبره.(٣) =

إلى أن عكا — بعد أن أعاد الصليبيون احتلالها — كانت آخر معقل صليبي كبير استعاده المسلمون، وكان ذلك إيذانًا بانتهاء الحروب الصليبية. انظر: عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن محمد الأيوبي، *المختصر في أخبار البشر* (بيروت: مطبعة دار الكتاب اللبناني)، مج ٤، ص ص ٢٥ ـ ٢٦؛ تقي الدين أحمد بن علي المقريزي، *السلوك لمعرفة دول الملوك*، تحقيق محمد مصطفى زيادة (القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية)، مج ٢، ق ٣، ص ص ١٢٥ ـ ١٢٩.

(٢) سعيد عبدالفتاح عاشور، *الحركة الصليبية* (القاهرة: مطبعة الأنجلو المصرية، لجنة البيان العربي، ١٩٦٣م)، مج ٢، ص ٨١٣.

(٣) فقـد ذكـر: بهاء الدين يوسف بن رافع بن شداد الأسدي، في كتابه *النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ـ سيرة صلاح الدين*، تحقيق جمال الدين الشيال (القاهرة: مطبعة الدار المصرية، ١٩٦٤م) =

قلق البابا (جريجوري الثامن) حين سمع ما حلّ ببيت المقدس، فأرسل كتابًا إلى سائر أتباعه في الغرب، يشرح لهم خطورة الوضع، ويدعو إلى اتخاذ الصليب، ووعدهم بغفران الذنوب (!)، وحماية أملاكهم. وواصل البابا التالي (كليمنت الثالث) جهوده، وتم الاتصال بين الإمبراطور الألماني (فريدريك بار باروسا) وملكي انكلترا وفرنسا. وتقرر فرض ضريبة على الناس في البلاد باسم (عشور صلاح الدين)[٤] وحدّدت نسبة (١٠٪) من واردات الأرض للصرف على نفقات الحروب الصليبية.

والواقع أن قدوم الحملة الألمانية يعتبر أشد ما تعرضت له بلاد الشام من خطر قبل الغزو المغولي.[٥] ولأهمية عكا القصوى قرّر صلاح الدين أن يبقى حولها للدفاع عنها، على أن ينهض أمراء الشام لمنازلة الألمان ومقاومة جبروتهم. ولخشيته من وقوع المدن الفلسطينية تحت السيطرة الصليبية من جديد، أمر بهدم أسوار بعضها مثل طبرية ويافا وأرسوف وقيسارية.[٦]

= تحت عنوان «ذكر الحيلة التي عملها المركيس في جمع الفرنج من وراء البحر» بأنه قد «صور القدس في ورقة عظيمة، وصور فيه صورة كنيسة القيامة التي يحجون إليها، ويعظمون شأنها، وفيها قبر المسيح الذي دفن فيه بعد صلبه بزعمهم، وذلك القبر هو أصل حجهم، وهو الذي يعتقدون نزول النور عليه في كل سنة في عيد من أعيادهم، فصور القبر وصور عليه فرسًا عليه فارس مسلم راكب عليه، وقد وطىء قبر المسيح وبال الفرس على القبر، وأبدت هذه الصورة وراء البحر (في أوربا) في الأسواق والمجامع، والقسوس يحملونها، ورؤوسهم مكشفة، وعليهم المسوح وينادون بالويل والثبور، وللصور عمل من قلوبهم، فإنها أصل دينهم، فهاج بذلك خلائق لا يحصى عددهم إلا الله تعالى، وكان من جملتهم ملك الألمان وجنوده. . .» *النوادر السلطانية*، ص ص ١٣٦ - ١٣٧؛ وانظر: أبو شامة، *الروضتين*، مج ٢، ص ١٦٠؛ عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، *البداية والنهاية* (القاهرة: مطبعة السعادة، ١٩٣٢م)، مج ١٢، ص ٣٣٥.

(٤) عشور صلاح الدين Saladin tax انظر:

Stanley Lane – Poole, *Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem* (Beirut: Khayats 1962), p. 252.

(٥) الباز العريني، *الشرق الأوسط والحروب الصليبية* (القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٦٣م)، مج ١، ص ٨٩٣.

(٦) محسن محمد حسين، *الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين* (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٦م).

إلا أن كارثة حاقت بالقوة الألمانية حين غرق بارباروسا في المياه الباردة قرب مدينة طرسوس الساحلية في آسيا الصغرى، وكان هذا الحدث ضربة قاصمة لمصير هذه الحملة المهمة أو لسائر الجماعات الصليبية. فتداعت معنوية المقاتلين، وعم الاضطراب صفوفهم. ولم يستطع ابن الإمبراطور (فردريك الصغير) أن يحلّ محل والده بجدارة. إضافة إلى أن الأمراض قد انتشرت بينهم، وقد أنزل الملك الظاهر شهاب الدين غازي بن صلاح الدين، صاحب حلب، هزيمة بهم.(٧) إلا أن فردريك استطاع أن يواصل رحلته صوب الجنوب فوصل إلى عكا سنة ٥٨٦هـ/ أواخر ١١٩٠م وهو يقود فلول الجيش.

أدرك صلاح الدين ضرورة اتخاذ موقف الدفاع الحذر بأن وزع قواته على أنحاء البلاد، فترك جزءاً مهمًّا منها عند عكا، في حين أبقى قسمًا منها مع ابنه الملك الأفضل نور الدين علي الذي كان يرابط عند مدينة حمص لمراقبة ما قد ينجم من أعمال عدوانية، واستعدادًا للدخول في قتال مع إمارة طرابلس، وترك قسمًا ثالثًا عند أطراف صور لمراقبة تحركات العدو، وخشية قيام (المركيز كونراد) بعمل معاد ضد المسلمين؛ أما القسم الرابع فكان يرابط في ثغور مصر، وعسكر القسم الخامس قبالة أنطاكية للرد على عادية ملكها غداة انتهاء فترة الهدنة المذكورة.(٨) إن لجوء صلاح الدين إلى أعمال المقاومة الدفاعية عن هذه الجهات، بعد وصول الحملة الصليبية الثالثة يجعل المراقب يقسم تاريخ جهاده العسكري إلى مرحلتين، تكون سنة ٥٨٥هـ/ ١١٨٩م حدًّا فاصلاً بينهما.

حصار عكا

ما إن وصلت القوة الألمانية إلى عكا إلا وفرضت حصارها الشديد عليها في البر والبحر حتى لم يبق للمسلمين إليها طريق،(٩) فحوصر من كان فيها من المسلمين مع قواتهم.

(٧) ابن شداد، *النوادر*، ص ١٣٢.

(٨) عز الدين علي بن أبي الكرم بن الأثير الشيباني الجزري، *الكامل في التاريخ*(بيروت: دار بيروت - دار صادر، ١٩٦٦م)، مج ٢، ص ٣٦؛ عز الدين أحمد بن إبراهيم الحنبلي المصري، *شفاء القلوب في مناقب بني أيوب*، تحقيق ناظم رشيد (بغداد: دار الحرية للطباعة، وزارة الثقافة والفنون، ١٩٧٨م)، ص ١٦١. W.B. Stevenson, *The Crusaders in the East* (Cambridge,1907), pp. 260-61.

(٩) ابن الأثير، *الكامل*، مج ١٢، ص ٣٤؛ أبو شامة، *الروضتين*، مج ٢، ص ١٤٧؛ ابن كثير، *البداية والنهاية*، مج ١٢، ص ٣٣٣؛ أبو حفص زين الدين عمر بن الوردي، *تاريخ ابن الوردي* =

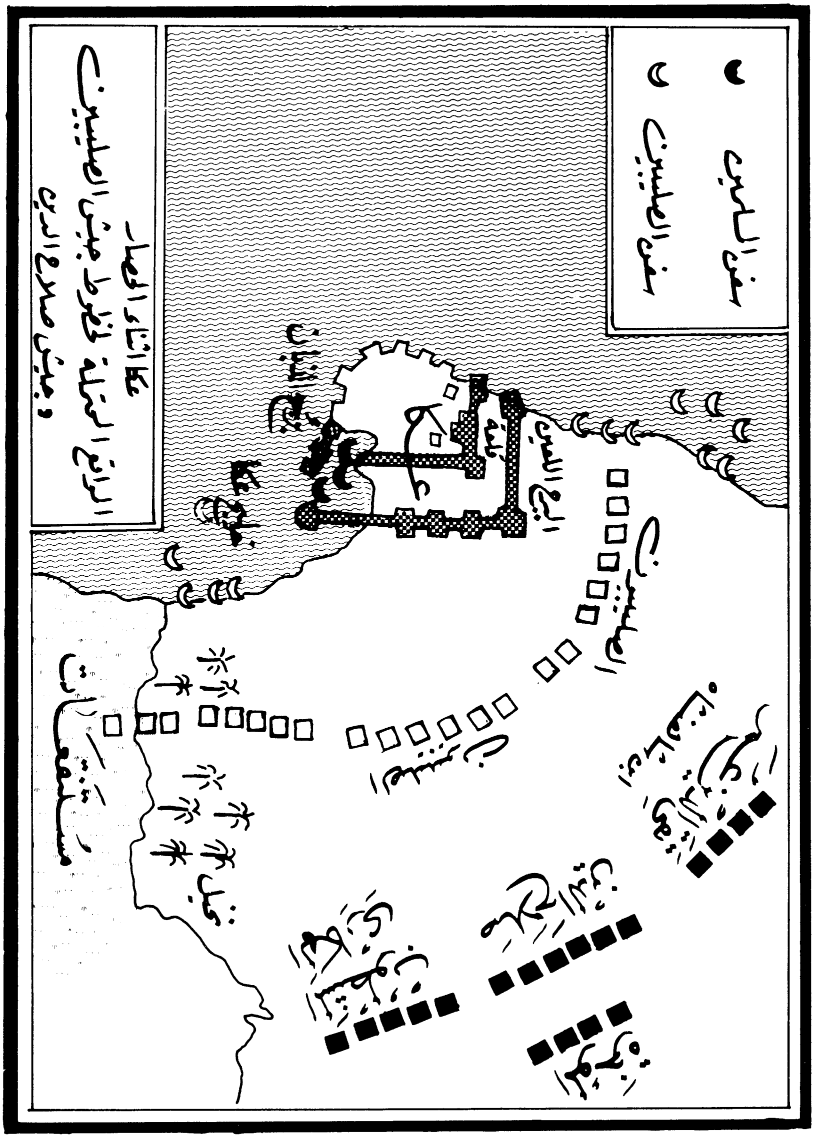

عكا أثناء الحصار
المواقع المحتملة لخطوط جيش الصليبيين
وجيش صلاح الدين

عندها حرّك صلاح الدين قواته نحو عكا وبدأ بتطويق المحاصرين الصليبيين برًّا. وطال أمد الحصار وحدثت معارك طاحنة، وعانى الطرفان وطأة الجوع.

إلا أن ما رجح كفة الصليبيين وصول فيليب أغسطس ملك فرنسا بقواته إلى معسكرهم في ربيع ٥٨٧هـ/ ١١٩١م، ثم وصول ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا بعدة أسابيع، مما جعلهم يضيقون الخناق على عكا. على أن حامية عكا استبسلت داخل المدينة في مقاومة الضغط، وأشعل المسلمون الحرائق في الدبابات والأبراج وذلك بضربها بالنفط، غير أن أحوالهم داخل المدينة ازدادت سوءًا وحرجًا.(١٠) وكان الصليبيون مستمرين على رشق أسوار المدينة بالمنجنيقات حتى تخلخلت، ثم أسرعوا في الزحف عليها من كل جانب.

حين ضعفت مقاومة المسلمين داخل المدينة أعلنوا عن تسليمها للصليبيين مضطرين وتحت شروط معلنة بينها الإبقاء على حياة رجال الحامية. وبدأت المفاوضات بين الطرفين، وقبل أن يصلا إلى نتيجة قام رجال ريتشارد بارتكاب جريمة قتل جماعية في حوالي ثلاثة آلاف أسير مسلم.(١١) وقد اعتبرت معارك حصار عكا الطويل الذي دام حوالي السنتين (٦٨٥ يومًا من شعبان ٥٨٥هـ إلى ١٧ جمادى الآخرة ٥٨٧هـ/ آب ١١٨٩ إلى تموز ١١٩١م) من

ذيل المختصر في أخبار البشر (النجف: المطبعة الحديثة، ١٩٦٩م)، مج ٢، ص ٤٤.

(١٠) ابن شداد، *النوادر*، ص ١٦٠؛ ابن الأثير، *الكامل*، مج ١٢، ص ٦٦؛ أبو شامة، *الروضتين*، مج ٢، ص ١٨٤.

(١١) ابن شداد، *النوادر*، ص ١٧٤؛ عماد الدين محمد بن محمد بن حامد الكاتب الأصفهاني، *الفتح القسي في الفتح القدسي*، تحقيق محمد محمود صبح (القاهرة: الدار القومية، ١٩٦٥م)، ص ٥٢٨؛ أبو الفضائل محمد بن علي، *التاريخ المنصوري، تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان* (موسكو: دار النشر للآداب الشرقية، ١٩٦٠م)، ص ٢٠٠؛ شمس الدين قزاوغلي التركي، سبط ابن الجوزي، *مرآة الزمان في تاريخ الأعيان* (حيدر أباد: مطبعة مجلس دار المعارف العثمانية، ١٩٥١م)، مج ٨، ص ٤٠٨؛ جمال الدين محمد بن سالم بن واصل الحموي، *مفرج الكروب في أخبار بني أيوب*، تحقيق جمال الدين الشيال (القاهرة: المطبعة الأميرية، ١٩٥٧م)، مج ٢، ص ٣٦٤؛ أبو الفرج غريغوريوس أهرون الملطي، ابن العبري، *تاريخ مختصر الدول* (بيروت: المطبعة الكاثوليكية، ١٩٥٨م)، ص ٢٢٢.

أعظم المعارك التي دارت في القرون الوسطى.[١٢]

ولا شك أن معارك طاحنة من هذا الطراز قد كلفت نفقات باهظة، لا تطيقها ميزانية دولة ظلت تنفق مبالغ لا حصر لها كالدولة الأيوبية. ومن أجل مواجهة وضع كهذا كان لزامًا على صلاح الدين أن يتصل بالقوى الإسلامية. فبعث قاضي عسكره المؤرخ ابن شداد إلى بغداد للحصول على تأييد جدي، وعلى موقف يرقى إلى مستوى الحدث. لكن جهود القاضي لم تثمر لممانعة الخليفة العباسي عن مساعدة صلاح الدين، وقد فسر البعض موقف الخليفة تفسيرًا غير مقنع، فقيل إن السبب كان يكمن في اللقب الذي حمله صلاح الدين لقب «الملك الناصر».[١٣] ومهما يكن من أمر فإن الخلافة لم تعبىء طاقاتها المالية والعسكرية والمعنوية للوقوف في وجه الصليبيين أيام محنة حصار عكا،[١٤] بل اكتفت بإرسال شاب ومعه حملان من النفط وخمسة من النفاطين وورقة موقعة من الخليفة العباسي تتضمن الإذن لصلاح الدين بأن يقترض عشرين ألف دينار من تجار الشام ينفقها في الجهاد، ويحيلهم إلى الخليفة. فما كان من صلاح الدين إلا و ردّ الرقعة إلى الخليفة،[١٥] قائلاً: «أنا في يوم واحد

(١٢) فيليب حتي، *تاريخ سورية ولبنان وفلسطين*، ترجمة كمال اليازجي (بيروت: دار الثقافة ومؤسسة فرانكلين، المطبعة البوليسية، ١٩٥٩م)، مج ١، ص ٢٣٩. وهارولد لامب، *شعلة الإسلام (قصة الحروب الصليبية)*، ترجمة محمود عبدالله يعقوب (بغداد: مطبعة الإرشاد، منشورات مؤسسة فرانكلين ودار المتنبي، ١٩٦٧م)، ص ١٥٥.

(١٣) وقصة اللقب المذكور (الملك الناصر) الذي حمله صلاح الدين، فالواقع أن الخليفة الفاطمي الأخير «العاضد لدين الله» هو الذي منحه له حين عيّنه سنة ٥٦٤هـ/ ١١٦٩م وزيرًا إثر وفاة عمه أسد الدين شيركوه الملك المنصور. وجرى ذلك في وقت لم يكن أحد من خلفاء بني العباس يحمل لقب «الناصر». فالخليفة الذي كان يحكم بغداد يومئذ هو «المستنجد بالله» الذي دام حكمه حوالي عشر سنين (٥٥٥ ـ ٥٦٦هـ/ ١١٦٠ ـ ١١٧٠م) ثم خلفه الخليفة المستضىء بأمر الله الذي حكم بين (٥٦٦ ـ ٥٧٥هـ/ ١١٧٠ ـ ١١٧٩م). وإن جاز أن نعدل المعادلة فينبغي القول إن الخليفة العباسي الناصر لدين الله الذي حكم في الفترة (٥٧٥ ـ ٦٢٢هـ/ ١١٧٩ ـ ١٢٢٥م) هو الذي أخذ لقب صلاح الدين وليس العكس.

(١٤) دريد عبدالقادر نوري، *ساسة صلاح الدين في بلاد مصر والشام والجزيرة* (بغداد: مطبعة الإرشاد، ١٩٧٦م)، ص ٤٤.

(١٥) ابن شداد، *النوادر*، ص ص ١١٨ ـ ١١٩؛ العماد الكاتب، *الفتح القسي*، ص ٣٦٥؛ سبط ابن الجوزي، *مرآة الزمان*، مج ٧، ص ٤٠١؛ أبو شامة، *الروضتين*، مج ٢، ص ١٥٢.

أخرج مثل هذا المبلغ وأضعافه»(١٦) إن هذا الموقف من الخليفة جعل مستشار صلاح الدين الذائع الصيت عبدالرحيم البيساني المعروف بـ «القاضي الفاضل» يطلق ملاحظات مريرة بهذا الصدد، إذ يقول: «كتاب بغداد كتاب بارد غث جامد، ما فيه مقصود لقاصد، ولا صلة ولا عائد، ونحن نطلب الذهب الحار فيضرب في حديد بارد.»(١٧) وعلق مؤرخ حديث هو الدكتور القزاز بقوله «كان موقف الخليفة العباسي من الحروب الصليبية يدعو للرثاء. . . لأنه لم يقدر خطورة الصليبيين على البلاد، ولم يعمل على توحيد كلمة المسلمين في المنطقة ليسند القوة الأيوبية التي كانت تتصدى لهم.»(١٨)

كيف تم الاتصال بالخليفة الموحدي؟

الملاحظ في أمر اتصال صلاح الدين بهذا الخليفة أن المصادر المشرقية المعاصرة لصلاح الدين تسكت عن هذا الاتصال، وكأنه كان من الأسرار التي لا ينبغي البوح بها، عكس ما حصل مع الخليفة العباسي. وهذه مسألة ينبغي ألا يمرّ بها المهتم بتاريخ العلاقات بين القوى الإسلامية مرّ الكرام. ولعل سبب هذا التكتم هو أن صلاح الدين لم يشأ أن يظهر نفسه بمظهر العاجز في الدفاع عن عكا، لكيلا يستغل العدو المحاصر هذا الوضع، أو أنه أراد أن يكتم خبر الاتصال عن الخليفة العباسي لكيلا يثير حفيظته، وتزداد العلاقة بينهما سوءًا، قبل أن يحصل على المعونة. أما مؤرخوه فلم يشاؤا الإشارة إلى موضوع يثير شجونه إضافة إلى الأسباب السالفة ويحتمل أنهم لم يكونوا على دراية كافية بما كان يحصل، على الرغم من صلة بعض مؤرخيه الوثيقة جدًّا به، فأحدهم كان كاتب إنشائه (العماد الكاتب) والثاني كان قاضي عسكره ومستشاره (ابن شداد)، ولعل استمرارهما على كتمان النبأ بعد وفاة القائد كان من قبيل الوفاء له ولذكراه. إلا أن الخبر قد شاع بين الناس، وصار نشره لا يسبب حرجًا لأحد.(١٩)

---

(١٦) سبط ابن الجوزي، *مرآة الزمان*، مج ٨، ص ٤٠١.

(١٧) أبو شامة، *الروضتين*، مج ٢، ص ١٧٦.

(١٨) محمد صالح داود القزاز، *الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الأخير* (النجف: مطبعة القضاء، ١٩٧١م)، ص ١٠٠.

(١٩) هذا وثم إشارة إلى أن العاهل الموحدي قد طلب من والييه في أفريقية (تونس) حين وصول سفير صلاح الدين إلى أراضي الدولة الموحدية أن يكتما خبر وصول السفير ريثما يستقبله بنفسه.

ولعل أول من تطرق إلى تلك الاتصالات كان المؤرخ شهاب الدين عبدالرحمن بن إسماعيل المقدسي المعروف بأبي شامة المتوفى سنة ٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م، وهو أقدم المؤرخين المشارقة غير المعاصرين. وقد استطاع هذا المؤرخ بجهوده الخاصة الحصول على نسخ الخطابات المرسلة إلى ملك المغرب من بعض الشيوخ الثقاة، وكانت مكتوبة بخط القاضي الفاضل المذكور. وقد ذكر أبو شامة بهذا الصدد قائلاً: كان بلغني أن السلطان صلاح الدين لما اشتدّ أمر الفرنج على عكا أرسل إلى ملك المغرب يستنجد به عليهم، ليقطع عنهم مادتهم من جهة البحر، وكنت أتطلب حقيقة ذلك وأبحث عن شرح الحال فيه، فإن العماد (الكاتب) والقاضي (ابن شداد) لم يتعرضا له في كتبهما.(٢٠)

ومهما يكن فإن القائد وقع اختياره على خير من يمكن أن يغيثه، ولولا ثقته بأن هذا الملك قمين بالالتجاء إليه لما أرسل له سفارة «بعثة» بهذا المستوى الرفيع اللائق، وتحمل هدايا نفيسة، ورسائل تتضمن عبارات تعظيم لم يسبق لصلاح الدين أن كاتب بمثلها أحدًا.

ترى أيصح أن نسلّم بما أعلنه هؤلاء المؤرخون حول رفض الخليفة الموحدي لطلب السلطان؟ وأنه كان بسبب الألقاب (كذلك)؟ فمع علمنا بأهمية الألقاب، وما كانت تتركه من آثار على العلاقة بين الأطراف الإسلامية،(٢١) إلا أننا لا نميل إلى اتخاذها سببًا كافيًا لاتخاذ موقف مجاف ومناف لمصالح المسلمين كذلك الموقف الذي اتخذه المجاهد المغربي.(٢٢) ونخال أن الموقف الرافض كان مرده حاجة المغرب إلى قوات يدّخرها لاستعمالها في معارك الجهاد مع نصارى الأندلس، «صليبيي المغرب»، والسبب الثاني يتعلق بالعلاقة التي اتسمت بالفتور، والقطيعة أحيانًا، بين الدولة الأيوبية وبين الدولة الموحدية، وسنتحدث عن كلا السببين. وهناك سبب ثالث وهو الخطر النورماني في جزيرة صقلية الذي كان يهدد الجناح الشرقي للمملكة الموحدية.

(٢٠) أبو شامة، *الروضتين*، مج ٢، ص ١٧٠.
(٢١) عبدالعزيز سيد الأهل، *أيام صلاح الدين* (بيروت: المكتب التجاري، ١٩٦١م)، ص ٩٠.
(٢٢) حسين مؤنس، *نور الدين محمود* (طهران: مكتبة الأسدي، ١٩٦٥م)، ص ص ١٩٣ ـ ١٩٤.

والمعروف أن المهدي بن تومرت قد وضع أساس الدولة الموحدية العقائدي وشكل نواة حركة منظمة، وأعدّ جيشًا قوامه عشرة آلاف مقاتل، استطاع به أن يحاصر مدينة مراكش سنة ٥١٧هـ/١١٢٣م للقضاء على الدولة المرابطية،(٢٣) وقد تولى المهدي عام ٥٢٤هـ/ ١١٣٠م ودفن بـ «تينملل» .(٢٤) ثم أتم أحد تلامذته وصاحبه وخليفته عبدالمؤمن بن علي رسالته، واستطاع أن يفتح مدن المغرب الواحدة بعد الأخرى، ثم اختطفته يد المنون عام ٥٥٨هـ/ ١١٦٣م. وقد أعلن المؤرخ المراكشي بصدد توسع المملكة في عهد مؤسسها هذا قائلاً: «وهذه مملكة لم أعلمها انتظمت لأحد قبله منذ أن اختلت دولة بني أمية إلى وقته.»(٢٥) وخلف عبدالمؤمن ابنه يوسف الذي دام حكمه من (٥٥٨/١١٦٣م - ٥٨٠هـ/١١٨٤م)، ويعتبره المؤرخون أعظم ملوك الموحدين، وكان أول من تلقب بالخليفة. ثم خلفه ابنه(٢٦) يعقوب الملقب بالمنصور الذي قام بفعاليات جادة عديدة للقضاء على قوة نصارى الأندلس قبل أن يعود إلى بلاده في أول جمادى الآخرة سنة ٥٩٤هـ/ ١١٩٨م، وتوفي بمراكش في العام التالي، ودفن بتينملل.(٢٧)

---

(٢٣) حكمت الدولة المرابطية بلاد المغرب بين ٤٣٠ - ٥٤١هـ/ ١٠٣٧ - ١١٤٧م.

(٢٤) تينملل: قرى ومزارع يسكنها البربر. بينها وبين مراكش نحو ثلاثة فراسخ؛ ياقوت الحموي، *معجم البلدان* (طهران: مؤسسة مطبوعات كورش كبير، ١٩٦٥م)، مج ١، ص ٩١١، فيها قبر عبدالمؤمن بن علي مؤسس دولة الموحدين، وقبور بنيه.

(٢٥) من كتاب عبدالواحد المراكشي، *كتاب المعجب في تلخيص أخبار المغرب*، تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي الفاسي، ط ٧ (الدار البيضاء: دار الكتاب، ١٩٣٨م)، ص ٣٥٤.

(٢٦) سالم، *تاريخ المغرب*، ص ص ٧٢٦ - ٧٢٩؛ محمد الرشيد ملين، *عصر المنصور الموحدي* (الرباط: مطبعة الشمال الأفريقية، د.ت.)، ص ص ١٣٣ - ١٤٢.

(٢٧) عبدالواحد المراكشي، *المعجب*، ص ١٨٢؛ يقول ابن خلكان: إنه توفي في مراكش، وقيل إنه مات بمدينة سلا المغربية وحكى لي جمع كثير بدمشق سنة ٦٨٠هـ أنه بالقرب من بلدة المجدل من أعمال البقاع قرية يقال لها «حمّارة» وإلى جانبها مشهد يعرف بقبر الأمير يعقوب ملك المغرب (*وفيات الأعيان*، مج ٧، ص ١٠)؛ ويقول ابن الأثير، توفي المنصور يعقوب بن يوسف بمدينة سلا، وكان قد سار إليها من مراكش وكان قد بنى مدينة محاذية لسلا وسماها المهدية، من أحسن البلاد، وأنزهها فسار إليها يشاهدها، فتوفي بها. (*الكامل*، مج ١٢، ص ١٤٥).

أما الساحة الأخرى لمتاعب الموحّدين، فكانت جبهة صراعهم مع ابن غانية[٢٨] وأعوانه الذين انفصلوا في جزر البليار (ميورقة، منورقة، ويابسة) الواقعة غربي البحر المتوسط،[٢٩] وتتبع إسبانيا في الوقت الحاضر. وأولاد غانية يمتّون بصلة القرابة إلى بني تاشفين (أمراء المرابطين) الذي أطاح بهم الموحدون، كما ذكرنا، وبعد أن رفعوا راية العصيان ضد الدولة الموحدية أعلنوا تبعيتهم للدولة العباسية.[٣٠] ثم تحالفوا مع الجماعات المحلية المناهضة للموحدين في شمال أفريقية، وهم «بنو هلال وسليم، والقوة العسكرية المصرية الأيوبية التي قادها (شرف الدين قراقوش) أحد مماليك تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين.

وقد توسع علي بن إسحٰق بن محمد بن غانية على حساب الموحدين، فاستولى على أفريقية (تونس) والمغرب الأوسط ابتداء من الجزائر حتى قسنطينية واستطاع إلحاق الهزيمة بالقوات الموحدية، ثم قاد الخليفة يعقوب المنصور سنة ٥٨٢هـ/١١٨٦م حملة عسكرية بنفسه، انتصر فيها عَلَى علي بن إسحٰق واستطاع استرجاع مدن تونس وعاد إلى المغرب مارًّا على بلاد الجزائر.[٣١]

حملة قراقوش

يرى المراقب لأحداث شمال أفريقية في تلك الفترة المليئة بالأحداث والمفاجآت، ضرورة إيجاد مخرج يفسر به أسباب قيام قراقوش بحملته العسكرية التوسعية، المشار إليها، التي بدأها من مصر وفيما إذا كان هذا قد خرج لمجرد تشكيل قوة جديدة تحكم شمال أفريقية

(٢٨) لمعرفة المزيد عن أولاد غانية انظر: عبدالواحد المراكشي، *المعجب*، ص ١٩٣ وما بعدها؛ سالم، *تاريخ المغرب*، ص ٧١٦؛ مراجع عقيلة الغناي، *سقوط دولة الموحدين* (بنغازي: منشورات جامعة بنغازي، ١٩٧٥م)، ص ص ١٦٧ - ١٨٣.

(٢٩) ملين، *عصر المنصور*، ص ٢٥.

(٣٠) ابن الأثير، *الكامل*، مج ١١، ص ٥٢١؛ أحمد بن علي بن عبدالله القلقشندي، *صبح الأعشى في صناعة الإنشا* (القاهرة: المطبعة الأميرية، ١٩١٣ - ١٩١٧م)، مج ٥، ١٢٦؛ وانظر: محمد عبدالله عنان، *عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس* (القاهرة: مطبعة لجنة التأليف، ١٩٦٤م)، مج ٢، ص ١٤٥؛ في حين يرى مراجع عقيلة الغناي العكس، *سقوط*، ص ١٧٣.

(٣١) ابن الأثير، *الكامل*، مج ١١، ص ص ٥٠٧ - ٥٠٨.

في فترة اتّسمت بالاضطراب، مما حدا بهذا إلى استغلال الوضع جريًا وراء تحقيق آمال سياسية؟ أم أنه قام بحملته بدفع من صلاح الدين، أو من أحد أبناء أسرته، لإيجاد موطىء قدم لهم في شمال أفريقية يتخذونه مأوى لهم يلجأون إليه إذا ما أدى الصراع الخفي بينهم وبين سيدهم نور الدين محمود صاحب الشام بفوز هذا عليهم.(٣٢)

في حين يرى البعض أن صلاح الدين أراد أن يجعل من موطىء القدم الذي سينتزعه أحد أمراء ابن أخيه مركزًا لتوسيع نفوذ دولته في بلاد أفريقية (تونس) والمغرب، أو جعله حاجزًا — على أقل تقدير — بين مصر وشمال افريقية،(٣٣) نظرًا لما كان يتردد بين الناس أن الموحدين كانت لهم أطماعهم في مصر، وينوون إلحاقها — وبالتالي إلحاق الشام والمشرق — إلى دولتهم، ولِمَا ظهر في مصر — كما ذكروا — من المنكرات والبدع.(٣٤) ومن المحتمل أن حكام مصر من الأيوبيين كانوا مطلعين على نوايا الموحدين، لذا أرادوا أن يأخذوا زمام المبادرة، فكلفوا بعض قادتهم بالتوجيه إلى جهة الغرب، وإيجاد موطىء قدم لهم فيها، لتكون خط الدفاع في وجه الموحدين، وكانت مبادرة قراقوش لا تخرج عن هذا الخط.(٣٥)

أما الرأي الرابع بشأن توسع الأمير الأيوبي فيقول إن هذا قد قام بحملته تلك لمناصرة البدو من بني هلال وبني سليم، وكذلك لمساعدة بني غانية في محاولة منهم لاستعادة حكم المرابطين، ثم العمل بتوجيه من صلاح الدين وسيادة الخلافة العباسية.(٣٦)

---

(٣٢) ابن الأثير، *الكامل*، مج ١١، ص ٣٧٠؛ عنان، *عصر المرابطين والموحدين*، ص ١٥٥.

(٣٣) انظر: الغناوي، *سقوط*، ص ١٩٤.

(٣٤) أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير *رحلة ابن جبير* (بيروت: دار بيروت ـ دار صادر، ١٩٦٤م)، ص ص ٣٠، ٣١، ٣٨، ٣٩. وانظر: ابن تومرت، كتابه *أعز ما يطلب*، تحقيق لوسياني (الجزائر: مطبعة لوسياني، ١٩٠٣م)، ص ٣٠٩؛ نقلاً عن الغناوي، *سقوط*، ص ١٩٥؛ المراكشي، *المعجب*، ص ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧.

(٣٥) الغناوي، *سقوط*، ص ١٩٨ ولمعرفة المزيد عما فعله قراقوش في حملاته تلك، انظر هذا الكتاب، ص ص ١٩٩ ـ ٢٠٢.

(٣٦) ابن الأثير، *الكامل*، مج ١١، ص ٥٢١.

والمعروف أن حملة قراقوش قد انتهت بالاستيلاء على ولاية طرابلس الغرب، وافتتح سنتريه[٣٧] واوجله، [٣٨] ثم سار إلى فزان فافتتحها، وقضى على دولة الهواريين القائمة بها، وكانت زويلة، — الواقعة وسط الصحراء — مقر ملكهم، وخُطب فيها لصلاح الدين وابن أخيه تقي الدين عمر، وقد قوي أمر قراقوش تباعًا، وأخذت نفسه تراوده بالاستيلاء على سائر أفريقية. [٣٩]

ومهما يكن السبب الذي دفع قراقوش إلي توجيه حملته، فإننا نرى أن المنصور الموحدي — إذا تسنى له أن يغض الطرف على خطورة تعاون قراقوش مع حكام الجزر — بني غانية — المناهضين لهم، بعد القضاء على خطورتهم في أفريقية — فإن ذكرى ذلك التعاون المريرة ظلت عالقة في ذهنه، وحالت دون قيام علاقات ودية، أو سوية، بين مصر الأيوبية والدولة الموحدية، [٤٠] وبالتالي حالت دون مساعدة جيش صلاح الدين في محنته المذكورة بعكا، فما فعله قراقوش، حتى لو لم يكن بتوجيه مباشر من صلاح الدين، كان كافيًا — كما يرى البعض — لأن يرفض المنصور الموحدي تقديم بحريته لمن كان يناهضه، [٤١] إضافة إلى استمرار اعتراف صلاح الدين بخلافة بغداد العباسية، وعدم اعترافه بخلافة الموحدين.

---

(٣٧) سنتريه: قصبة الواحة الثالثة. بلدة في غربي الفيوم، وهي آخر أعمال مصر، بينها وبين (أوجلة) عشر مراحل في صحراء ورمال، قليلة الماء، أهلها بربر لا عرب فيهم؛ ياقوت، معجم *البلدان*، مج ٣، ص ١٥٧.

(٣٨) اوجلة: مدينة في جنوبي برقة نحو المغرب، ضاربة في البر، عامرة كثيرة النحل؛ ياقوت، معجم *البلدان*، مج ١، ص ٣٩٧.

(٣٩) عبدالرحمن بن محمد بن خلدون، *كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر (تاريخ ابن خلدون)* (القاهرة: مطبعة بولاق، ١٢٨٤هـ)، مج ٦، ص ص ١٩١ - ١٩٢.

(٤٠) يقول محمد الرشيد ملين: «كان الخليفة الموحدي لا يزال يتذكر أن صلاح الدين كان صلة الوصل بين الخليفة العباسي وبني غانية، وعن طريقه مرت خلع (هدايا) الخليفة العباسي إلى ابن غانية، *عصر المنصور الموحدي*، ص ١٤٤.

(٤١) انظر: سعد زغلول عبدالحميد، «العلاقة بين صلاح الدين وأبي يوسف،» *مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية*، مج ٦ و ٧ (١٠٥٢م)، ص ٩٦.

أمر سفارة صلاح الدين

حين رأى صلاح الدين في الدولة الموحدية ملاذًا يجدر قصده والالتجاء إليه، كتب إلى الخليفة المنصور في عام ٥٨٥هـ/ ١١٨٩م رسالته الشهيرة مدبجة بقلم القاضي الفاضل يستصرخه ويستنصر به على قتال الجيوش الفرنجية (الصليبية) الزاحفة على فلسطين، وفيها يصف كاتب صلاح الدين المنصور بـ «أمير المؤمنين، وسيد العالمين، وقسيم الدنيا والدين . . .»[٤٢] ويصف له جهوده المستمرة في محاربة الصليبيين وهزيمتهم وما كان لذلك من أثر في تحالف الغرب، بدوله العديدة، وكيف نهض ملوكه بجيوشهم وأساطيلهم لمحاربة المسلمين المجتمعين تحت لوائه، ومحاولة الاستيلاء على مدن الساحل في الشام واستعادة ما فقدوه من مواقع. ويطلب صلاح الدين من عاهل المغرب أن يمده بشطر من أساطيله المنصورة، وأن يرسل، في الوقت نفسه، قسمًا من أسطوله إلى جزيرة صقلية فيشغل صاحبها ويعطله عن الاشتراك مع رفاقه الملوك النصارى في مهاجمة مصر، وليقبع في جزيرته. ويردفه صلاح الدين في رسالته المطولة مخاطبًا صاحب المغرب: «وبذلك يذهب سيدنا وعقبه بشرف ذكر لا تُردّ به المحامدُ على عقبها، ويقيم على الكفر قيامة يطلع بها شمس النصر من مغربها.»[٤٣]

والرسالة المذكورة التي دوّن نصها القلقشندي — من كتّاب مصر الكبار الذي عاش في عهد المماليك — أعلن فيها صلاح الدين أنه كان قد نوى أن يتصل بالمنصور الموحدي منذ أن استقل بأمر مصر قبل حوالي عشرين سنة بقوله: «كان من أوائل عزمنا، وفواتح رأينا عند ورودنا الديار المصرية مفاتحة دولة سيدنا (!) وأن نتيمن بمكاتبتها، ونتزين بمخاطبتها، وننهض إليها أماثل الأصحاب.»[٤٤] ويعرض في الرسالة، بعد شرح وافٍ للأوضاع في فلسطين والشام، عن حاجته الماسة إلى من يمدّ له يد المعونة الجدية، ويقول: وما رأينا أهلاً

(٤٢) القلقشندي، *صبح الأعشى*، مج ٦، ص ٥٢٧؛ ابن منكلي، مخطوط *الأحكام الملوكية والضوابط الناموسية* المنشور في *المجلة العربية للعلوم الإنسانية*، كلية الآداب، جامعة الكويت، مج ٤، عدد ١٤ (ربيع ١٩٨٤م)، ورقة ٦٦ أ.

(٤٣) القلقشندي، *صبح الأعشى*، مج ٦، ص ٥٢٩.

(٤٤) القلقشندي، *صبح الأعشى*، مج ٦، ص ٥٢٧.

لهذه العـزمة إلا حضرة سيدنا (!) أدام الله صدق محبة الخير فيه، إذ كان منحه عادة في الـرضى به وقـدرة على الإجابة، ورغبة في الإنابة، ولاية لأمر المسلمين، ورياسة للدنيا والدين، وقيامًا لسلطان التوحيد القائم بالموحدين، وغضبًا لله ولدينه.»[٤٥]

ويختتم الرسالة بشرح حاجته إلى قطع من أسطول الدولة الموحدية ليواجه بها أسطول العدو الصليبي، ويقول: وقد أوفدناه على باب حضرة سيدنا (!) وهو الداعي المسمع، والمبلغ المقنع، . . . .»[٤٦]

وبعث بهذه الرسالة مع أبرز رجال الدولة الأيوبية وهو شمس الدولة عبدالرحمن بن محمـد بن مرشـد بن منقذ الكناني، سليل أمراء بني منقذ[٤٧] أصحاب حصن[٤٨] شيزر السابقين بالشام، وكان هذا الأمير ممن يُعتَمد عليهم في قضاء مهام دولته الدقيقة.

والواقع أن صلاح الدين بعث بثلاثة خطابات متتالية — على أقل تقدير — إلى ملك المغـرب. وقد أتبع الخطاب المذكور بآخر بعث به مع سفيره المذكور في ٢٨ شعبان سنة ٥٨٦هـ/ تشرين الأول ١١٩٠م، وقـد استهلّه بديبـاجة بديعة تعتبر من القطع العربية البليغة في آداب المراسلة، أعلن فيه عن استنكاره الشديد لما فعله بعض المنشقين من أعوانه (قراقوش وبوزبا وغيرهما) ونعتهم بـ «نفايات الرجال الذي نفتهم مقامات القتال. . . وأنهم ليسوا من المماليك والأمراء، ولا من المعدودين في الطواشية[٤٩] والأولياء.» ثم يصف قائدي

---

(٤٥) القلقشندي، *صبح الأعشى*، مج ٦، ص ٥٣٠.

(٤٦) ابن منكلي، *الأحكام*، ورقة ٦٨ أ.

(٤٧) المولود في شيزر بالشام سنة ٥٢٣هـ/ ١١٢٨م. انظر: ابن خلكان، *وفيات الأعيان*، مج ٧، ص ١٢.

(٤٨) شيزر: قلعة تشتمل على كورة بالشام قرب المعرة، بينها وبين حماة يوم في وسطها نهر الأرند، تعد من أعـمال حمص. ينسب إليهـا جماعة من الأمراء من بني منقذ وكانوا ملوكها؛ ياقوت، *معجم البلدان*، مج ٣، ص ٣٥٢.

(٤٩) الطواشية. مرتبة عسكرية عالية. انظر هامش (١)، ص ١٠٣ من كتابنا *الجيش في عهد صلاح الدين*.

الحملة بقوله: إنهما لم يكونا «ممن إذا غاب أُحضر، ولا ممن إذا فقد افتقد» ويعلن معتذرًا عن أفعالهما قائلًا: «معاذ الله أن نأمر مفسدًا بأن يفسد في الأرض إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت.»(٥٠) وهذا يعني أن صلاح الدين قد أفهم بطريقة ما أنه لن يحصل على مساعدة بحرية من الموحدي بسبب سكوته عن توسع قراقوش. إلا أن هذا القائد رد التهمة عن نفسه معلنا أنه لم يدفع أحدًا من أتباعه، أو شجعه للقيام بعمل معاد ضد أراضي الدولة الموحدية.

وفي الرسالة أضفى على الملك الموحدي عددًا من الألقاب الفخرية حسب ما كانت تتطلبه الرسائل البليغة التي كانت تُرفع إلى ذوي الشأن الرفيع، فإضافة إلى تكراره العبارة «سيدنا» كما في الخطاب الأول لقبه في هذه الرسالة بـ «الاسفهسلار»(٥١) الأصيل، العالم المحترم، تاج الدولة، أمير الملة، صفوة الملوك والسلاطين، شرف الأمراء(٥٢) وهذا يعني أن صلاح الدين كان جادًا كل الجدة في توثيق علاقته بالموحدين. ثم يعدد له القاضي الفاضل — رأس كتاب ديوان صلاح الدين — «على لسان هذا السلطان — ما قام به الأخير من أعمال جليلة في مصر والشام وفلسطين، تلك الأعمال التي توّجها بدحر الصليبيين وفتح البيت المقدس، ثم استعادة الثغور وافتتاح البلاد، إلى أن تنبّه الغرب — كرة أخرى — فجاء لينجد الصليبيين المهزومين فقدم بأساطيله ورجاله وملوكه وقسسه حتى حاصروا ثغر عكا «حصره العدو وحصرنا العدو» حتى انجلت إحدى المعارك عن عشرين ألف قتيل من الكفار. . . ومع ذلك فإن أمر العدو قد تطاول، وخطبه قد تمادى، ونجدته تتواصل، ومنها ملك الألمان في جموع جماهيرها مجمهرة، وأموال قناطيرها مقنطرة. . . إلا أن الله قصم طاغية الألمان وأخذه أخذة فرعونية بالإغراق. . .»(٥٣) ثم يدخل الكاتب الموضوع الذي من أجله أرسل صلاح الدين مبعوثه فيقول: «فإن كانت الأساطيل بالجانب المغربي ميسرة والعدة منها متوفرة. . . وأنت أيها الأمير فيها أول من استخار الله وسار. . . وما رأينا أهلًا لخطابنا، ولا كفؤًا لإنجادنا ولا محفوفًا بدعوتنا ولا مليًا بنصرتنا إلا ذلك الجناب، فلم ندعه إلا لواجب

(٥٠) أبو شامة، *الروضتين*، مج ٢، ص ١٧١.
(٥١) الاسفهسلار: مقدم الجيوش، القلقشندي، *صبح الأعشى*، مج ٦، ص ص ٧ ـ ٨.
(٥٢) أبو شامة، *الروضتين*، مج ٢، ص ١٧٠.
(٥٣) أبو شامة، *الروضتين*، مج ٢، ص ١٧٠.

عليه، وإلى ما هو مستقل به ومطيق له، فقد كانت تتوقع منه همة تقد في الغرب نارها ويستطير في الشرق سناها.»(٥٤)

وحين امتنع الخليفة المغربي عن مساعدة صلاح الدين، لم ييأس هذا القائد من إعادة المحاولة، والفوز بمعونة المجاهد الموحدي، لأنه كان يعلم أنه يتوجه بطلبه الوجهة الصحيحة، وأن نزعة الجهاد كانت تضطرم في جوانحه، اضطرامها في جوانحه هو، وأن الكفاح الذي خاض غماره الموحدون ضد نصارى الأندلس في المغرب، كان يكمل الكفاح الذي يرفع لواءه صلاح الدين في المشرق. ولهذا قرر أن يعيد الكرة في طلب المعونة، فأرسل إلى المغرب سفارة جديدة على يد الأمير المذكور (ابن منقذ) يحمل رسالة وهدايا مجزية.

في هذه الرسالة وصف القاضي الفاضل الوضع المتأزم في ساحل فلسطين بتقاطر الفرنجة «الصليبيين» المستمر برًّا وبحرًا بقيادة ملوكهم، وما وقع حول عكا التي ما زالت تطوقها القوات المعادية في البر والبحر، وما بذله جيشه من أجل إنقاذ المدينة الباسلة، لهذا يتوجه بطلب نجدة من صاحب المغرب بقوله: «إنه كان من المتوقع من تلك الدولة العالية... مع القدرة الوافية، والهمة المهدية الهادية، أن يمد غرب الإسلام المسلمين، بأكثر مما أمدّ غرب الكفار الكافرين، فيملأها عليهن جواري كالأعلام، «وأنه لما تأخرت الإجابة «ظن أنها توقفت على الاستدعاء، فاستصرخه بهذه التحية فقد تحفل السحاب ولا تمطر إلى أن تحركها الرياح.»(٥٥)

وفي تاريخ وصول سفارة صلاح الدين إلى المغرب اختلاف، على الرغم من قلة أهمية بيان تواريخ الرسائل، أما يتعلق بلقاء السفير مع الملك الموحدي، فقد ذكرت الرواية الشرقية (رواية القاضي الفاضل) أن ابن منقذ أبحر من الإسكندرية قاصدًا المغرب في ١٣ من رمضان عام ٥٨٦هـ/ ١١٩٠م، وأنه وصل إلى مراكش في شهر ذي الحجة، ومثل أمام الملك، وقدّم إليه هدايا صلاح الدين في العشرين من الشهر المذكور.

---

(٥٤) أبو شامة، *الروضتين*، مج ٢، ص ١٧١.

(٥٥) أبو شامة، *الروضتين*، مج ٢، ص ١٧٣.

وكان على السفير حين وصوله أرض المغرب أن ينتظر عودة الملك المنصور من بلاد الأندلس، حيث يقود جيشه لمقاتلة النصارى، وأخذ مدينة شلب وكانت بأيدي البرتغاليين. وكان الملك في تلك الآونة مقيمًا بأشبيلية، يترقب الأحداث ويتأهب للمنازلة.

ويبدو أن المصادر التاريخية الشرقية، وهي متأخرة كما ذكرنا، لم تكن مطلعة على سير الأحداث وتتبع تحركات السفير، ومعرفة ما كان يجري على الساحة المغربية والأندلسية من أحداث بشكل كاف، لبعد الشقة، ولهذا فإن الرواية المغربية المعاصرة المطلعة أكثر دقة[٥٦] وأهمها رواية المؤرخ صاحب كتاب *البيان المغرب* المستقاة فيما يبدو، من رواية ابن صاحب الصلاة مؤرخ البلاط الموحدي. فهي تقدم لنا تفاصيل أدق عن تحركات السفير المذكور، وتبدو أكثر انسجامًا مع سير الأحداث. فتقول إن السفير حين توجّه غربًا نزل بثغر تونس فاستقبله السيد أبو زيد والي أفريقية (تونس)، ثم توجّه نحو بجاية — الواقعة على الساحل الجزائري — فاستقبله واليها أبو الحسين بحفاوة بالغة، وكتب الواليان إلى عاهل المغرب، وكان نازلاً أشبيلية يخبرانه بمقدم السفير، فوصلت كتبهما إليه في رجب ٥٨٦هـ/ آب ١١٩١م، فرد الملك عليهما بالشكر، وطلب منهما أن يستمرا في إكرام الضيف، ويطلبا منه أن يكتم سبب مقدمه ريثما يستقبله الملك بنفسه.

فغادر السفير أفريقيا (بلاد تونس) ونزل بمدينة فاس المغربية، وظل ينتظر فيها لقاء الملك مدة عام. وكان الملك أثناء ذلك منشغلاً بالقيام بعمل عسكري واسع لغزو أراضي البرتغال في جمادى الأولى عام ٥٨٧هـ/ حزيران ١١٩١م، ثم توجه نحو مدينة شلب، وعاد ظافرًا إلى أشبيلية، ثم قفل عائدًا إلى بلاده في شهر رمضان من العام المذكور، فوصل مدينة مراكش واستقر بها، وكان السفير قد وصل إليها، فاستقبله الملك، وقدّم إليه السفير هدايا صلاح الدين، وفيها مصحف كريم في أربعة مخيشة بالمسك، وثلاثمائة مثقال من العنبر، وعشر قلائد من الجوهر عددها ستمائة حبة ومائة قوس بأوتارها، ونصول سيوف هندية وغيرها.[٥٧]

---

(٥٦) انظر ما يقوله محمد عبدالله عنان، *عصر المرابطين والموحدين*، ص ص ١٨٣ ـ ١٨٤.

(٥٧) أبو شامة، *الروضتين*، مج ٢، ص ١٧٣؛ ابن خلدون، *كتاب العبر*، مج ٦، ص ٢٤٦؛ ويذكر أبـو العبـاس أحمـد بن خالد الناصري في *كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى* (الدار =

يقول صاحب كتاب *الاستبصار* إن اجتماع السفير ابن منقذ بالعاهل الموحدي تم في السادس من المحرم سنة ٥٨٨هـ/ ٢٣ كانون الثاني ١١٩٢م، وأنه غادر البلاط بعد ذلك بخمسة أيام، بعد أن أفضى بمضمون رسالة القائد صلاح الدين إلى الخليفة المنصور، وكان السفير قد مدح المنصور بقصيدة تقع في أربعين بيت، فأعطاه الخليفة ألف دينار عن كل بيتًا قائلًا له: إنما أعطيناك لفضلك ولبيتك، يعني لا لأجل صلاح الدين.[٥٨]
وجاء في تلك القصيدة:

سأشكــر بحـرًا ذا عبـاب قطعتـه — إلى بحــر جود ما لنعــماه ساحـل
إلى معدن التقوى إلى كعبة الهدى — إلى من سمت بالـذكر منه الأوائل
إليك أمــير المسلمــين[٥٩] ولم تزل — إلى بابـك المـأمول ترجى الرواحل
قطعت إليك الــبر والبحـر موقنًـا — بأني بذاك القـطع بالنجـح كافـل
فما راعني من وجبــة الــبر رائــع — ولا هالني من زاخـر البحـر هائـل
ومن كان غايات المعــالي طلابــه — يهون عليه كل أمـر يحاول
رجـوت بقصـديك العـلى فبلغتهـا — وأدنـا عطاياك العـلى والفضـائـل
فلا زلــت للعــلياء والجــود بانـيًا — تبـلغـت الأيام ما أنـت آمـل[٦٠]

إلا أن السفارة لم تحصل على المطلب الذي قدمت من أجله، وهو تزويد جيش صلاح الدين بمعونة بحرية.[٦١]

هنا يفرض سؤال مهم نفسه على جو الأحداث هو: ألم يكن صلاح الدين على علم أن المنصور الموحدي لن يسعف طلبه نظرًا لأوضاع بلاده الداخلية والخارجية؟[٦٢] وبسبب

=

البيضاء: مطبعة دار الكتاب، ١٩٥٤م) تفاصيل تلك الهدايا النفيسة، مج ٢، ص ١٨٢.

(٥٨) أحمد بن محمد التلمساني المقري، *نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب*، تحقيق إحسان عباس (بيروت: دار صادر، ١٩٦٨م)، مج ١، ص ٤٤٤، الناصري، *الاستقصا*، مج ٢، ص ١٨٣.

(٥٩) «أمير المؤمنين» في الناصري، *الاستقصا*، مج ٢، ص ١٨٣؛ والمقري، *نفح الطيب*، مج ١، ص ٤٤٤.

(٦٠) أبو شامة، *الروضتين*، مج ٢، ص ١٧٤؛ الناصري، *الاستقصا*، مج ٢، ص ١٨٣.

(٦١) أبو شامة، *الروضتين*، مج ٢، ص ١٧٤؛ المقري، *نفح الطيب*، مج ١، ص ٤٤٥.

(٦٢) يرى البعض أن رفض الخليفة يعقوب الموحدي إمداد صلاح الدين بالمساعدات البحرية لم يكن =

ما حصل بينه وبين الدولة الموحدية؟ فلماذا إذن طلب المساعدة من هذه الدولة؟

نخال أن صلاح الدين، على الرغم من أننا لا نستطيع أن نبرىء ذمته — ولو إلى حد قليل — لما فعله قراقوش وبوزبا، إلا أنه أراد أن يفتح صفحة علاقات جديدة بين جناحي العالم الإسلامي اللذين كانا لا يزالان يتعرضان لهجوم الغرب. ولعله فكر أن يغير تبعيته — السابقة — من بغداد إلى الرباط، نظرًا لما اتسمت به علاقاته مع الخليفة العباسي من فتور، كما ذكرنا. فكان أن اتصل بمثاله الذي يجاهد ضد الإسبان والبرتغاليين (نصارى الأندلس)، لوجود لغة مشتركة بينهما، لغة الجهاد، والصمود في وجه الغزاة للحيلولة دون ضياع عكا، ومن ثم فلسطين، من جديد من جهة الشرق، أو ضياع الأندلس من جهة الغرب. فكان اتصاله بالمنصور بمثابة محاولة منه لمعرفة مدى استجابته لطلبه، واستعداده لمدّ يد المعونة. فكان أن أرسل وفدًا بهذا المستوى الرفيع.

نستنتج من هذا الكلام

أولاً: أن الفرقة التي عانى منها العالم الإسلامي، وتفكك مظاهر الوحدة نتيجة الضعف الذي دبّ في أوصاله لأسباب عديدة — ليس هذا مجال ذكرها — جعلت القوى المحيطة بهذا العالم تطمع فيه، بل وتتكتل ضده، فمن حركة «الاسترداد» في الأندلس التي انتشر لهيبها إلى إعلان حرب واسعة عليه باسم «الحروب الصليبية،» إلى استغلال المغول لهذه الفرصة والانقضاض على الجزء الآسيوي من العالم الإسلامي. وكان المؤرخ الكبير ابن

=

خطأ، فمن حق الخليفة أن يفكر في سلامة رعيته قبل التفكير في سلامة البلاد النائية عنه. انظر: محمد الرشيد ملين، *عصر المنصور*، ص ١٤٤؛ عبدالحميد، «العلاقة بين صلاح الدين،» ص ٩٧. وكتب إحسان حقي يقول: إن الموحدين كانوا يخشون أن تنقلب الحروب الصليبية من الشرق إلى الغرب إذا ما أنسى الأوربيون من أهل الشمال الأفريقي (الموحدين) ضعفًا، والدليل على ذلك أن الثورات في الأندلس لم تهدأ قط بغية إشغال المسلمين على مساعدة إخوانهم في مصر وسورية. . . ولعل المنصور الموحدي كان يدرك هذه الحقيقة في بقاء أساطيله في الغرب ليجنب المسلمين في الشرق ضربات الصليبيين (!) ويفيد صلاح الدين والشمال الأفريقي (كذا). انظر كتابه: *المغرب العربي* (بيروت: دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، د.ت.)، ص ص ٦٧ ـ ٦٨. وسنرد على هذا الرأي الخاطىء بعد قليل.

الأثير (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م) على وعي تام حين ربط بين ذيول هذه الحركات العدوانية المتشعبة في وقت لم يكن الخطر المغولي قد تفاقم إلى الحد الذي سيتفاقم فيه بعد وفاة ابن الأثير بأكثر من ربع قرن[٦٣] وقد تحدث عن العدوان المغولي قائلاً: هذا العدو الكافر التتر قد وطئوا بلاد ما وراء النهر وملكوها وخربوها، والعدو الآخر الفرنج قد ظهر من بلادهم في أقصى بلاد الروم، بين الغرب والشمال، ووصلوا إلى بلاد مصر. . . فإنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ثانيًا: لم يحصل أن أنجد الجزء الشرقي من العالم الإسلامي جزأه الغربي، أو بالعكس بعد أن تمت تجزئته، ولم يكن من طبيعة المرحلة أيام حروب (الاسترداد) والعدوان الصليبي أن يمد أحد الطرفين الطرف الآخر بالمساعدة على نطاق العلاقات الرسمية بين الجناحين. بل إن الجزء الشرقي — نفسه — لم ينجد صلاح الدين، ولم يرتفع إلى مستوى خطورة الحدث، كما رأينا، وهذا لم يمنع من وجود مجاهدين من كل الأطراف تطوعوا من أجل الدفاع عن البلاد ودفع العدوان عن الأرض الإسلامية، مثل وجود المغاربة في صفوف جيش صلاح الدين[٦٤] أو إدراك الجماهير (العامة) لمسؤوليتها تجاه ما يحصل، على الرغم من موقف الدولة الرسمي غير المدرك لخطورة ما كان يجري.

ثالثًا: إن صلاح الدين، الذي أراد أن يصوّب تلك المعادلة الخاطئة، بمحاولته في الحصول على معونة العاهل الموحدي، لم يمهد لتلك المحاولة تمهيدًا كافيا يجعلها محاولة مثمرة، بالرغم من إضفاء ألقاب تعظيم فخرية على هذا العاهل وإرساله هدايا ثمينة له مع رسوله، إلا أن المحاولة لم تعط أية نتيجة تذكر، لجملة أسباب ذكرناها، بينها سبب اللقب ومغامرة قراقوش. بل ثم احتمال ليس من السهل ترجيحه، في أن المنصور الموحدي لم يكن يتمنى أن يخرج صلاح الدين منتصرًا قويًا في صراعه مع الصليبيين، فوجود حاكم ضعيف في مصر كان يحقق تطلع الموحدين نحو تلك الديار، في وقت كانوا يمدون أعناقهم نحوها،

---

(٦٣) انظر: ابن الأثير، *الكامل*، مج ١٠، ص ص ١٤٢، ١٩٤، ٢٧٢.

(٦٤) ابن جبير، *الرحلة*، ص ٢٨٠؛ وانظر كتابنا *الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين*، ص ص ١٥٧ - ١٦٢.

بدعوى انتشار البدع فيها، كما أشرنا إلى ذلك. وثم مسألة أخرى جديرة بالتنويه هنا، هي نظرة البلاط الموحدي إلى صلاح الدين كونه ليس سليل أسرة حاكمة عريقة، وتبدو هذه النظرة جلية، ليس في رفض طلب المعونة فحسب، وهو المهم، بل في عدم الرد على صلاح الدين ردًا يليق بمكانته بتقديم اعتذار مقبول، وإرسال هدايا إليه، في حين أن (المنصور) أعطى لرسوله (ابن منقذ) ألف دينار عن كل بيت من أبيات القصيدة الأربعين التي تلاها في حضرته قائلاً له: «إنما أعطيناك لفضلك ولبيتك، يعني لا لأجل صلاح الدين» كما يذكر ذلك أكثر من مؤرخ[٦٥] وكان ابن منقذ سليل أسرة حاكمة أفل نجمها.

رابعًا: كانت الدولة الموحدية، في حد ذاتها، بحاجة ماسة إلى القوى البحرية لصراعها المستديم مع نصارى الأندلس، وقد تطرقنا إلى هذه المسألة، وأكد عليها مؤرخون عديدون — قدامى ومحدثون — إلا أن ما نودّ أن نذكره هو ما أشار إليه البعض بشكل يقرب إلى الجزم إلى أن الموحدين كانوا يخشون أن تنقلب الحروب الصليبية من المشرق إلى المغرب إذا ما استشعر الأوربيون ضعفًا من أهل المغرب (حسب ما ذكره إحسان حقي في كتابه *المغرب العربي* مثلاً). والواقع أننا لا نذهب مع هذا الرأي لسبب واضح هو: أن الحروب الصليبية في المغرب (أو ضد المغرب) المناصرة للوجود الإسلامي في الأندلس، قد بدأت قبل هذا التاريخ فيما سمي بـ «حركة الاسترداد» ولا سيما بعد أن ضعفت قدرات المغرب الدفاعية، إثر وفاة الخليفة المنصور، ولهذا فإن الحروب الصليبية لم تنقلب إلى المغرب من المشرق، بل إن ما حصل هو أن حركة الاسترداد تلك قد استمرت وخسر المسلمون كل بلاد الأندلس بالرغم من عدم إرسال المغرب شيئًا من بحريتها إلى المشرق. أما في المشرق فقد استطاع المسلمون استرداد كامل الأرض في الشام وفلسطين، وطرد المستوطنين من آخر معقل لهم في عكا، دون الحصول على أية مساعدة من المغرب.

---

(٦٥) الناصري، *الاستقصا*، مج ٢، ص ١٨٣؛ المقري، *نفح الطيب*، مج ١، ص ٤٤٥.

The Nature and Reason of the Ayyūbid Ṣalāḥal-Din's Contacts with the Caliph al-Manṣūr al-Muwaḥḥidī

Muhsin Muhammad Hussain
Assistant Professor, History Department, College of Education, Baghdad University, Iraq

Abstract. A complicated subject in the history of the Crusades and inter-relationships among Islamic powers is the one concerning the contact of Ṣalāḥal-Din the Ayyūbid with the Muwaḥḥidi Caliph al-Manṣūr Ya'qūb b. Yusuf b. Abdul Mu'min, who ruled over the Maghrib and parts of al-Andalus from 580-595 A.H./1184 - 1198 A.D.

This issue is not treated on a level worthy of the immensiysy of the eent. The historians of the period did not shed enough light on it, or else they held it through a narrow prism, whereas the oriental historians mentined nothing about it. This prompted us to study the subject in the light of the nature of Islamic inter-relationships, which is embodied in Ṣalāh al-Din's need for naval reinforcement at the time of the long blockade of Acre, in order to create a counter-balance with the enemy naval force who had tried to recover the territories lost to him as a result of the battle of Ḥiṭṭin which enraged Europe anew and prompted it to arrange for another crusading campaign, which was led by the greatest European kings of the time, and whose interest was focused on the recapture of the Kingdom of Jerusalem. They began by besieging Acre from the sea as well as the land, and when the navy of Ṣalāḥ al-in failed to withstand the assault, he felt obliged to appeal for assistance from Islamic powers, especially the Muwaḥḥid king. He failed on this. We study the reasons for his refusal to help. The result was the disasterious fall of Acre, although the enemy failed to score a big victory after that.